«روح العصر» وسليم البستاني

بقلم الدكتور صالح جواد الطعمة

في شهر تموز (١٨٧٠)، اي قبل مائة سنة تقريبا، ظهر للمفكر العربي سليم البستاني (١٨٤٨ ــ ١٨٨٤) مقال طريف بعنوان «روح العصر» (١) حاول فيه ان يضع خطوطا عامة لروح العصر في ضوء التيارات الفكرية والاحداث السائدة في القرن التاسع عشر ، وان يؤكد ضرورة تفهم «روح العصر» والعمل بموجبه . ولم يقتصر البستاني في منحاه هذا على المقال المذكور ، بل لجأ ــ كما سنرى ــ الى ترداد الفكرة في مواضع عدة من المقالات والقصص التي كان ينشرها آنذاك في مجلة «الجنان» .

ومحاولة البستاني تشير الى احتمال اطلاعه على فكرة ZEITGEIST او روح العصر التي اتسمت بها الفلسفة الالمانية المثالية ، وهي تدل بوضوح على تأثره بافكار الثورة الفرنسية (٢) ، وتعكس شيئا من النزعة الرومانتيكية التي طفت في عصره ، وتميزت بمحاولة التحرر من سلطان التقاليد او القيم الموروثة، اللا متغيرة. وليس من الغريب ان تظهر كتابات البستاني تأثره بافكار غربية معاصرة ، فقد كان اولا ملما بلغات عدة كالانكليزية والفرنسية ، مما اتاح له الوقوف على ما ينشر في تلك اللغات ، وكان كذلك متتبعا للاحداث ومعلقا عليها في مجلة الجنان بين ١٨٧٠ ــ ١٨٨٤ ، حريصا على استخدام قصصه ورواياته للتوجيه والاصلاح (٣) ، ونشر ما يروق له من مثل او افكار ، اضف الى ذلك كله قيامه بترجمة عدد من الاعمال الاوربية .

ولاهمية المقالة ، باعتبارها من اقدم المحاولات ــ ان لم تكن اقدمها ــ في تاريخنا الادبي ، لتحديد «روح العصر» (٤) ، سأحاول تلخيصها والاشارة الى تعليقات متفرقة اخرى وردت في كتاباته حول الموضوع ذاته .

يبدأ البستاني مقاله بمقدمة يبين فيها تباين المجتمعات البشرية في اللغات والعادات وسبل المعيشة والسياسة والاديان ، وان هذا التباين يزداد او يقل حسب تفاوت العوامل السياسية والدينية قوة وتأثيرا ، فينتج عن ذلك انفصال بعض المجتمعات عن البعض الاخر انفصالا تاما في حالات ، او تقاربها او اتحادها في حالات اخرى وكنتيجة لعمليتي الاختلاف والتقارب ، ينشأ روح عام وخاص يطلق عليه روح العصر .

«... كانت (اي المجتمعات) تارة تجتمع بعض الاجتماع ، في الصوالح (٥) وطورا تتفرق كل التفرق فيها . فنتج من ذلك الاجتماع والعلاقات التجارية والتفرق والاختلافات السياسية روح عام وخاص بحسب الاجتماع والتفريق والاتحاد والانفصال يوافق كلا من ظرفي المكان والزمان او احدهما دون الآخر وهذا الروح هو ما يسمى بروح العصر» . وينتهي البستاني من مقدمته الى تعريف اولي يحدد روح العصر بـ «المبادىء التي تؤسس عليها اعمالها كل امم العالم او بعضها او واحدة منها بحسب الاجتماع والانفصال . فان كانت احدى تلك الامم او بعض اعضائها مخالفة لتلك المبادىء التي اتخذها العالم اجمع او بعضه ... يقال ان روحها مخالف لروح الزمان .. ولما كان المخالف الضعيف يقصر عن التغلب على مخالفة القوي وعن بلوغ مبلغه كان لا بد من ان المخالف القوي يحوز اكاليل النصر في نزال الزمان ، ولذلك كان لا بد من تقلب (تغلب) روح كل زمان على الذين ليسوا من روحه ..» اي ان هنالك ــ في راي البستاني ــ عنصرين متلازمين يكونان روح العصر اولهما الاتفاق على مبادىء معينة عامة تلتزم بها امم العالم او مجموعة منها ، والاخر عنصر القوة التي تطبع العصر بروح ذويها . وللقوة ــ عند البستاني ــ مفهوم عام ، فهي ذات جوانب سياسية واقتصادية وعلمية ،

ولذلك فهو يعزو الى رجال الحكم والعلم والاقتصاد دور اضفاء طابع معين على العصر ينبغي للاكثرية الالتزام به، والسير على هداه ويتضح هذا في قوله : «انه لما كان الدين في ايديهم زمام الامور السياسية والعلمية والتجارية مع قطع النظر الان عن الدينية هم للعالم كمدبر الدفة للمركب كان لا بد من سير العالم بحسب افكارهم . فاذا في الكلام عن روح العصر لا بد من اعتبار روحهم كالروح الذي يختلج في جسد العالم قاطبة لان الذين هم في رتب دونهم ليسوا الا كآلة يديرونها كيفما شاؤا».

ومن الواضح ان البستاني ينسب للخاصة الدور الاساسي في تحديد «روح العصر» ، واذا كان للعامة دور فانما هو دور يعتمد نجاحه على القيادة التي تنسب اليها المنجزات حتى وان كانت العامة مسؤولة في حقيقة الامر عنها . «هذا ولا نقول ان العامة ليس لها في ساحة العالم اعمال تظهر بأنها قادرة على تغيير هيئته في بعض الظروف بل نقول انها غير قادرة على القيام بعمل من هذا القبيل بدون مساعدة الخاصة التي تنسب اليها تلك الاعمال حال كونها في باطن الامر هي القائمة بها» .

وعلى هذا الاساس ينبغي ان يفهم قوله «ان روح العصر انما يكون بحسب روح الخاصة» وهو راي لا يختلف في جوهره عن راي المفكر الالماني يوهان هردر (١٧٤٤ ـ ١٨٠٣) الذي ربط روح العصر بالافكار والمبادىء التي يحملها اكثر الناس تبصرا واكثرهم ذكاء او تفكيرا(٦). ولكن البستاني يتميز باتساع نظرته التي تحاول الجمع بين العوامل السياسية والفكرية ـ الروحية والاقتصادية بدلا من التأكيد على عامل واحد ، وبتخصيص مبادىء ثلاثة تكون في نظره روح العصر : المساواة ، الحرية ، والتقدم . «ان خاصة عصرنا قد اسست اعمالها اولا على المساواة ، ثانيا على الحرية المطلقة التي لا تضر بالغير ، ثالثا على ترقية اسباب تقدم العالم خصوصا وعموما وهذه المبادىء الثلاثة هي روح العصر الحاضر » .

ويخيل اليّ ان البستاني كان يسعى في مذهبه الى اعادة النظر في السياسة والدين كما كانا يطبقان او يتبعان في عهده ، وخلق نوع من التوازن بينهما يكفل مراعاة كل منهما لروح العصر . ولهذا فهو يسرع الى القول بان هنالك «ضدين قويين» لروح العصر: هما الدين والسياسة محذرا بانه لا يقصد بذلك الاساءة الى «مطلق وجود الدين» و«مطلق وجود السياسة» ، فهما ـ كما يقول ـ «ركنا حفظ الميزانية وراحة العباد وبدونهما يخرب نظام الكون البشري وتقف حركته» بل يقصد بمخالفة «الدين» او «السياسة» لروح العصر اقحامهما في امور لا تتعلق بهما ، واستخدامهما للقيام باعمال منافية لمبادئهما او غايتهما ، مستشهدا على ذلك بسياسة بعض الدول الاوربية التي تميز بين مواطنيها على اساس الدين ، داعيا الى الفصل بين السياسة التي يجب ان تعنى بالشؤون المدنية ، والدين الذي يقوم على اساس الاختيار حسب الاقتناع ، وتعلقه بكل انسان على حدته ـ كما يقول .

وينتهي من مناقشته الى القول بان الدين في جوهره لا يمنع اهله من « موافقة روح العصر في الامور المدنية» وانه لا يخالف روح العصر الذي يدعو الى المساواة ، مؤكدا «ان من فهم حقيقة الدين يعرف ان التعصب هو من الامور التي تضر جدا به » . وللتدليل على ان مواكبة الدين لروح العصر لا تضره او تنال من جوهره ، يستعين بما اتخذته بعض الاقطار الاوربية من خطوات تتلاءم وروح العصر ، وما كانت «الدولة العلية» تحاول الاخذ به في زمانه .

وبالرغم من ان معالجة البستاني لموضوع «روح العصر» تفتقر الى العمق ، وتتسم بالارتباك ـ ومن العدل الا نتوقع منه اكثر مما قام به وهو شاب في العشرين من عمره ، ويتناول موضوعا حساسا في ايامه ـ فانها في ظروفها التاريخية كانت محاولة قيمة للاشادة بمبادىء المساواة والعدل والحرية وخدمة الرعية ، وقد حلى معالجته بالاستعارات والتشابيه الكثيرة التي عرف بها اسلوبه كما بين الناقد الشهير مارون عبود (٧) ، او كما يتضح في خاتمة مقالته التي تلخص مفهومه لروح العصر : «وهكذا كل حكومة لا تزين جيد قوانينها بعقد المساواة ولا تلبس في ذراعها سوار العدل ، ولا تتنطق بنطاق الحرية ولا تتكلل بأكاليل المشروعات المفيدة والاعمال الحسنة ولا تسير على قدم محبة متبادلة بينها وبين رعاياها تزل بها القدم حين لا ينفعها الندم لان روح العصر لا يسمح بذلك اذ انه قد شب في قلوب العيلة (العائلة) البشرية محبة المساواة والعدل والحرية والتقدم في كل شيء ماديا وادبيا » .

ويبدو ان البستاني كان مسحورا بـ «روح العصر» لفظا ومعنى الى حد كبير ، ومقالاته او رواياته المنشورة في مجلة الجنان تضم اشارات متكررة الى ذلك سواء وردت قبل نشره المقال المذكور ام بعده .. فمن اشاراته التي نلاحظها في احدى محاولاته القصصية «فاتنة» قوله عن احد الشخصيات : «فصاح عليه وتوعده وشتمه وقال له انك لست من المتمدنين ولا من الذين يدركون روح العصر » (٨) . اما مقالاته في «الجنان» فتبدو كانها وسيلة يستعين بها ليردد مفهومه لروح العصر ، ففي مقاله «الراحة»(٩) يصرح« ان اساس الراحة العمومية هو الدولة لانها ان سلكت بحسب مقتضيات الحال وروح الزمان واعتبرت صالح رعاياها صالحها قادتهم الى جنان الراحة والامان .... واما اسباب الراحة العمومية فهي العدل والامان والاسعاف ماديا وادبيا ..» ويعود في «الانصاف» (١٠) الى نغمة مماثلة لما ورد في «روح العصر» مكررا فكرته ان لكل زمان روحا وان من الضروري

مواكبة هذا الروح قائلا : «انه لما كان لا بد لكل زمان من روح ولكل روح من حال ، وكان لا بد لذلك الزمان والروح والحال من عادات واعمال وكيفيات واختراعات ودول ورجال تختلف في اكثر الاحوال عما كان لغيرها مما سبقها ومما ربما يتبعها ، وكان ما اختص به الامس لا يوافق غالبا روح اليوم وذوق اهله ، كان لا بد من اختلاف العادات ومشارب البشر والهيئات الاجتماعية ومقتضيات الحال في اكثر الامور المهمة والعرضية ولذلك نقول : انه لا بد من موافقة روح العصر في كل زمان ومكان بدون التشبث بالامور القديمة لمجرد كونها قديمة حال كونها لا توافق مقتضيات الحال ولا تسد احتياجات الزمان .. »

وتأكيد البستاني على روح العصر يتسم بالتفاؤل والثقة بحتمية انتصاره رضي بذلك اولو الامر اقتناعا ام وجدوا انفسهم مكرهين عليه ، كما يتجلى ذلك في الامثلة المذكورة ، او في قوله «فنسأل الله ان يؤهلنا لان نكون من المنتظمين في سلك روح العصر لئلا يسوقنا الزمان اليه على غير رضانا ... » (١١) ، او في تعليقه على سياسة الدولة التي يرفضها روح العصر «لا يمكننا ان نسلم بان الدولة لا تحب رفع الاسباب التي تمس صوالح الرعايا قياما بحق السياسة التي يرفضها روح العصر ويقاومها اهل الزمان ، لان الدولة تعرف ان قوتها انما تكون بقوة تبعتها وغناهم » (١٢) ، او في رؤيته المتفائلة لاجتثاث التعصب الديني عندما يقول في مقاله «الغد» : «قد فتحنا الكلام بطلب قتل العصبية الدينية وسنتممه بها لانه بدون ذلك لا امل لنا من نوال المرغوب ، واذا قال احد ان ذلك ضرب من المحال اقول له ان العصر الذي قتل التعصب الديني في اوربا سيقتل عنصر التعصب في بلادنا .. » (١٣) .

واذا كانت هذه الامثلة تنم عن اسراف في التفاؤل، مماثل لاسراف فيكتور هوغو في رؤيته المثالية للقرن العشرين ، فانها تدل من ناحية على مدى اتساع افق البستاني ونزعته الانسانية في معالجة احداث عصره ومشكلات قومه ، وعلى ادراكه قيمة الحرية والمساواة والعدالة والتقدم والتسامح الديني كمبادىء يلتزم بها قومه ، من ناحية ثانية .

ان هذه الامثلة وغيرها من مقالاته التي نشرها بين ١٨٧٠ ــ ١٨٨٤ جديرة بان تلقى من الباحثين اهتماما جديا ، وان تشجع بعضهم على جمع تعليقاته ومقالاته المتناثرة تمهيدا لتقديم الدور الذي لعبه سليم البستاني في الحركة الفكرية العربية خلال القرن التاسع عشر .

جامعة انديانا ــ الولايات المتحدة **صالح جواد الطعمة**

التعليقات والمصادر

(١) سليم البستاني : «روح العصر» الجنان ١ (تموز ١٨٧٠) ٣٨٥ ــ ٣٨٨

(٢) بالاضافة الى تعليقاته التي تنم عن اعجابه بمبادىء الثورة الفرنسية ، نجده يطلق على فرنسا لقب «مرضعة روح العصر» : راجع الجنان ٣ (١٨٧٢) ص ٦٥٠ ومقالة المستشرق ليون زو لندك عن الاراء الاجتماعية والسياسية للكاتب سليم البستاني .

Leon zolondek . « Socio-political Views of Salim AL Bustani (1848 - 1884) »

Middle Eastern Studies 2 (1966) P. 149

للاطلاع على ما يتصل باعمال البستاني راجع : يوسف اسعد داغر مصادر الدراسة الادبية ج٢ (بيروت : ١٩٥٦) ١٨٦ ــ ١٨٨ .

(٣) محمد يوسف نجم . القصة في الادب العربي الحديث : ١٨٧٠ ــ ١٩١٤ ط ٢ (بيروت : ١٩٦١) ٣١ ــ ٦٥ وانظر ملاحظة الدكتور سهيل ادريس حول طغيان النزعة الاجتماعية في روايات البستاني وقوله عنها بانها قد تجعل من اعماله وثيقة عن اخلاق المجتمع الذي تاثر في تلك الفترة بالتقاليد الاوربية المعاصرة ، ووصفه البستاني بانه واحد ، لعله الاول ، من هؤلاء الكتاب الذين يهتمون بتحذير الناس ويحشون آثارهم بالوعظ والانتقاد والاصلاح الاجتماعي ». سهيل ادريس . محاضرات عن القصة في لبنان (القاهرة: ١٩٥٧) ٦ــ٧

(٤) من المحاولات الاخرى التي جلبت انتباهي مقالة محمد فريد وجدي «الروح العصرية نفحة الهية» ، الحديث ٣ (كانون الثاني١٩٢٩) ١٣ــ١٨ ، وقد قارن فيها بين ما كان يؤمن به الناس في الازمان السابقة ، وما يرونه اليوم ، مستخلصا من مقارنته ما اسماه بـ «اكبر العناصر الادبية التي تتالف منها الروح العصرية» كالمساواة، والعدالة الاجتماعية في توزيع الثروة ، وخضوع الحكم لمشيئة الشعب ، وعدم الاخذ بنظرية القوة اساسا لتحديد «الحق» .

(٥) اي المصالح في استعمالنا الحديث .

(٦) راجع: صالح جواد الطعمة «الشعر العربي المعاصر في العراق وروح العصر» . المثقف ١ (تشرين الاول ، ١٩٥٨) ٤٤ــ٥٥ و

Levin Schucking . The Sociology of Literay Taste (Oxford , 1945) P.6

وللوقوف على تعريف موجز بفكرة هردر عن روح العصر وتاثيره في الفكر الالماني اقرا ما جاء في :

Der Grosse Brockhaus Vol . 9 (Leipzig , 1931) P. 17

et . G . Robertson . A history of GERMAN LITERATURE (New York 1962) P.P. 251 - 261

(٧) مارون عبود : رواد النهضة الحديثة (بيروت : ١٩٥٢) ١٦٣

(٨) انظر كتاب محمد يوسف نجم ص ٥٤

(٩) «الراحة» الجنان ١ (آذار / ١٩٧٠) ١٩٣ ــ ١٩٥

(١٠) «الانصاف» الجنان ١ (حزيران / ١٩٧٠) ٣٦٩ ــ ٣٧١

(١١) انظر مقاله «روح العصر» ٣٨٨ ، وتعليقه في موضوع اخر: « ولكن لما كان روح العصر مما لا يكلف دينا اكثر من وسعه كان خيرا لكل المتدينين ان يوافقوه على رضاهم فيامنوا غوائل الجبرية» .

(١٢) «المعدة» الجنان ١ (نيسان ١٨٧٠) ٢٢٥ ــ ٢٢٧

(١٣) انيس المقدسي الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ط ٣ (بيروت : ١٩٦٣) ٣٠٣ .